بيروت ٢٨ كانون الثاني ١٩٥٤

ميشال شيحا المواطن

الكلمة التي ألقاها الأستاذ محي الدين النصولي في حفلة تكريم الأستاذ ميشال شيحا بالندوة اللبنانية:

ضع يدك على قلبك تجد صدى للعاطفة الأخوية التي تضطرم في قلبي وقلوب الذين اجتمعوا لتكريمك في بيت يعتبره كل لبناني بيته، فإذا قلبك وقلبي وقلوبنا جميعاً تنبض بهذه العاطفة الأخوية، عاطفة المواطن الذي نشأ في بلد وترعرع فيه، وضمت تربته رفات الذين نحبهم، والذين وضعوا في بنيانه لبنة، مهما تكن مواضعة، عبر العصور.

أنت يا أخي مواطن لبناني أمسك القلم، وسطر نثراً رائعاً وشعراً ساحراً ولم تعش في برجك العاجي فحسب، بل داعبت بهذا القلم الأرقام، وعالجت الأعمال، فكنتَ رجل فكر ، وكنتَ رجل عمل، وأغدق الله عليك بسطة في العلم والمال لم تستأثر بها لنفسك، بل جدت بها على من حولك ونثرتها ملء راحتيك على مواطنيك والناس فكنت المواطن الصالح وكنت من الذين يؤثرون مواطنيهم والناس على أنفسهم، والإيثار صفة القلوب الكبيرة والنفوس الخيرة.

لم نسمع يوماً أنك طلبت شيئاً لنفسك وأحببت الظهور على الرغم من أنك تملك كل أسباب الظهور، بل كنت كالبنفسجة تنشر الطيب، وتختبىء بين الأوراق، كنتَ كالبنفسجة، وكانت أوراقك من نوع آخر. إنها أوراق صديقك الكتاب، هذا الكتاب الذي أحببته فبادلك الحق وأغدق عليك علماً صافياً، وتفكيراً متزناً،وخلقاً عظيماً، فلم تزه، ولم تمش في الأرض مرحاً لأنك آمنت بما يؤمن به العلماء. كنت كلما نهلتَ من معين المعرفة أحسست بظمأ مذيب لها وعطش شديد لمصدرها فدفعك علمك الى التواضع والتواضع صفة العالم الحق والمواطن الصالح.

وقد صادقت يا أخي النخبة لأنك من صميمها وفي طليعتها، فكانت صداقتك حلوة صادقة، حية محيية، وهذه كلماتك في رثاء صديقك وصديقي المغفور له عبد الحميد كرامي، وهو من لب النخبة لا تزال تتجاوب في قلبي.

وصادقت الجماهير، فلم تمش خلفها، بل مشيت أمامها، وصارحتها بما تعتقده الحق والصواب سواء أرضيت هذه الجماهير أم غضبت، فكنت صديقاً من طراز آخر، وكنت من هذا الطراز الذي يجدد الصداقة صدقاً ، وصراحة لا تملقاً، فكنت هنا كما كنت في كل شيء المواطن. قال بعضهم إنك كنت على صلة بالعهد السالف، ولكن هل سمع هؤلاء دقات ناقوس الخطر التي كنت تقرعها بين الفينة والفينة على صفحات جريدتك ليجور ؟ كنت أقرأك كل يوم، وكان الألم الذي يعصف بصدرك يعصف بصدر المخلصين من اللبنانيين ، وكانت مقالاتك نبؤات تحققت كلها حتى اذا غاب ذلك العهد مددت يدك الى العهد الجديد وأمسكت المجذاف ونشرت الشراع محتفظاً باستقلالك حريصاً على حريتك لا تحرق البخور، ولا تنبذل فكنتَ المواطن الصالح.

وقال بعضهم إنك من أنصار العزلة ولكن الذي يقول إن البيت اللبناني هو بيتنا، وهو بيت الأسرة اللبنانية، وإن روح العصر الحاضر تحتم علينا أن نهتم ببيوت سوانا فنقيم بيننا وبين أصحابها لا علاقات مبادىء وعواطف فحسب بل علاقات خدمات ومصالح، ذلك لأنه لم تبقَ هناك أنانية قدسية تسمح لنا بأن نحدّ العالم بتخم أوجدار يفصل بيننا وبين الجيران. إن الذي يقول هذا القول ليؤمن ولا شك بالتعاون بين الشعوب لاسيما المجاورة.

ألست أنت القائل إن المدنية العربية هي مدنيتنا جميعاً الى حد بعيد وإنها تنشدنا كما ننشدها مدنية أساسية والى جانبها المدنيات المتوسطية والإنكار ساكسونية وإن شرعة الأوعية المتصلة تركت أثرها بين المدنية العربية والمدنيات الغربية فكيف يكون انعزالياً مَن له هذه الأفكار ؟

وحين عالجت مشكلة فلسطين عالجتها معالجة المواطن الصالح الذي يرى الخطر المحدق بوطنه فلا يستخف به بل يحذر مواطنيه مغبته ويؤكد لهم أنهم لن يذوقوا طعم الطمأنينة بعد قيام اسرائيل وهي قوة عالمية ومدرسة للعرقية ومختبر يمور بالحركة الدائمة والأماني الثائرة، اسرائيل التي يزداد تسلحها مع الأيام فنساؤها محتشدات وثمة مشاريع للمستقبل تفوح منها رائحة العنف والإجتياح وثمة مطامع تعصف بالصدور منذ عهد بعيد عده داود وسليمان وثمة خمسة عشر مليونا من اليهود وهم جبابرة السياسة والمال في أرجاء العالم يؤججون الحلم الذي يمور في الصدور.

لبنان شخصية قائمة بذاتها ودنيا تسير على قدمين وعالم يمور بالممكنات المادية والروحية ولبنان رسالة لا تقتصر على حدوده التي أقمناها ولم تقمها يد الله فهذا الوطن الذي أتخيله وتتخيله هو أبعد من حدوده التي تواضعنا عليها. إن تخومه تمتد الى كل بلد عربي ولا تقف الاّ عند التخوم التي رسمتها يد الله حين رسمت العالم.

ضع يدك على قلبك تجد ترجيعاً لخفقان قلوبنا، فنحن حريصون مثلك على تماسك الأسرة اللبنانية وتراحمها وتوادها، حريصون على أن يجتمع الشمل حول الموقد، وفي العرزال، عند الينابيع نتطلع الى الله دائماً ونستلهم أبداً ليدلنا على الصراط المستقيم.

ولئن اختلفنا معك حول بعض الآراء ، حول بعض الجزئيات، فليس ذلك بالأمر الخطير ، فالخلاف رحمة اذا كان رائده الإخلاص، وثق بأننا نؤمن بإخلاصك كما نؤمن على ما نعتقد بإخلاصنا، ولا بد أن يلتقي المخلصون في آخر الطريق.